ولادة ميت !...

الاستاذ محمد حسين اسماعيل

« . . . وخيل اليه انه يسمع الصوت والكلمات والمنى لاول مرة ، وانبثق نور الايمان من قلبه قويا جارفا . »

كانت ثمة من الحركات يثار ؛ وكان الهواء يهب عاليا قاصفا وكان البرد شديداً قارساً ؛ والساعة تعلن انتصاف الليل .

وكان امين افندي جالسا في غرفته منفرداً ؛ ولم يكن معه احد يبدد وحشته ويشاركه الحديث ؛ والغرفة عارية الا من اثاث قدر بسيط ؛ ومصباح الزيت المعلق على الحائط تعبث نسمات الهواء فيه تنفخ الضوء منه ويرسم على الجدار صوراً تبعث الرعب والخوف ؛ ولم يكن ثمة صوت آخر ؛ في الظلام الا صوت تساقط حبات المسبحه بين يديه وهو يعبث بها ؛ والا صوته وهو اذ يرتفع بين حين وآخر بتلاوة آيات من القرآن الكريم او بعض الادعية ؛ وبين فترة وأخرى ؛ كان يرتفع من داخل البيت ، اصوات بعض النساء وهن يبكين او يدعون او يتحدثن .

وكلما ارتفعت اصوات النساء من الداخل ؛ كان امين يرهف السمع ، ويطيل الانصات ، لعل بعض الحديث يصل الى اذنيه ، ولعل بعض الاطمئنان يدخل الى قلبه القلق ، وفكره المشرد .

لقد كان ينتظر مولوداً ، وذاك المولود المنتظر اول ذريته .

وقد تزوج امين قبل عشرين سنة ، وكان شابا قضى فترة شبابه في المرح وطلب اللذه ، حتى اذا شبع من فجوره ؛ قرر نسيان ماضيه ، وقطع علائقه السابقة ؛ فتزوج وفتح صحيفة جديدة بيضاء نقيـــة في تأريخ حياته . وكان صورة الزوج المثالي الشريف ؛ فسار على الطريق المستقيم ، وبذل جهده وماله في سبيل سعادة زوجته .

ومضت السنين ولم تلد زوجته ؛ وتنبهت فيه غريزة الابوة ، فعرض نفسه وزوجته على الاطباء ، وبذل كل قرش ادخره في سبيل هذه الامنية وتحقيقها ، وكان يقطع اللقمة من فمه ليدفعها اجراً للطبيب ، وثمناً للدواء ، ولكن الامل ظل بعيداً ، وقطع الامل من الطب الحديث فمال الى السحر والشعوذة دون طائل ، وكلما طالت المدة ؛ كلما زاد شوقه وحنينه .

وفي بعض الاحيان كان يضع اللوم على زوجته ، وكانت زوجته تزعم ان اللوم عليه ، ثم يتفقان على سوء حظهما وتوفيقهما .

وجاء الفرج اخيراً ؛ اخيراً جداً ؛ واخبرته زوجته بين دموع الفرح والدلال بأن اعراض الحمل قد بدت عليها .

وفي خلال الشهور التسعة ؛ كان يعد الايام ؛ ويحصي الدقائق ، انتظاراً لليوم الموعود ، وكان يخشى على زوجته من زحمة العمل فيطلب منها الاخلاد الى الراحة ، والكف عن الاعمال الشاقة .

وكان النزاع ينشب في بعض الاحيان بينهما ، فقد كان امين يتمنى أن يكون المولود ذكرا ليساعده في شيخوخته ، ويدفىء بشبابه برد حياته ؛ وكانت زوجته تتمنى ان يكون المولود انثى ؛ لتساعدها في اعمال البيت غداً حين تصبح هي عجوزاً لاتقوى على العمل ومشاقه ، وقد يطول النزاع والجدل بينهما ، ولكنهما في النهاية يصبران على حكم القدر ؛ ويرتضيان حكم الله ورغبته .

وهاهو اليوم الموعود قد حل ! وها هي زوجته بين يدي القابلة والجيران تنتظر انتهاء الشدة ؛ كما ينتظر هو النتيجة ولكن الوقت مضى ، ولا يزال كل شيء على سابقه ؛ وصوت الزوجة يرتفع بالاستغاثة والدعاء بين حين وآخر ، وامين افندي يسأل من كل خارج عن النتيجة .

وقبل الفجر بقليل ارتفعت اصوات النساء من جديد ؛ ولكنها في هذه المرة لم تكن للاستغاثة والبكاء ، بل كانت اصوات بكاء ونحيب .

وتعجب امين ، وساوره القلق والاضطراب ، مالذي

يحدث؟ اماتت الزوجة أم تعسرت الولادة ام خرج الطفل ميتاً؟

ودخلت عليه امرأة من الجيران فانقذته من اضطرابه وقلقه ، وقالت له وهي تنشج وتمسح الدمع : أن الطفل خرج ميتا ، وان الزوجة نجت باعجوبة وان الحالة كانت عسرة جدا.

وماتت الكلمات على شفتيه فسكت عن الجواب ، لقد انتظر كل شيء ، الا هذا النبأ المسيء ، وتمنى كل شر الا هذا الحادث المشؤوم .

وفي هذه اللحظة الواحدة ، تذكر كل الآلام والاشواق التي تحملها في هـــذه السنين المقفرة العجاف ، ومرت امام عينيه المناظر والرؤى والاحلام كأنها شريط سينمائي ، فلم يستطع مغالبة الدمع ، لقد تحطمت حياته كلها في لحظة قصيرة ، وخيل اليه ان هذا الذي يسمعه وراءه حلم مزعج لاحقيقة واقعة ، ولكن اصوات البكاء كانت تكذب احلامه ، وتحطم أمانيه .

وطال صمته وتفكيره ، وكانت اعقاب السكاير تتراكم امامه ، ولاح لعينيه ضوء الفجر ؛ واستطاع ان يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ، وارتفع صوت المؤذن مناديا للصلاة

الله اكبر . . . لا اكبر من الله شيء ، وخيل لامين افندي انه يسمع الصوت والكلمات والمعنى لاول مرة ، وانبثق نور الايمان من قلبه قويا جارفا ، واستقام تفكيره شيئاً فشيئاً ، وعاوده الاطمئنان والثقـــة ؛ واستطاع ان يقول لنفسه بان الانسان لايملك لنفسه ضرا ولا نفعاً ، فكيف يطلبه لغيره ؛ وان نظام الكون يسير على ترتيب بلغ الغاية في الدقة والكمال ولا يهم ذلك النظام غضب انسان أو رضاه .

ان الله يعرف الصالح لنا والنافع للكون ، اما نحن فنسير على رغائبنا وهوانا ، وربما كان موت الطفل بعد ذلك الانتظار لحكمة خفيت عن ابصارنا ، وان الذي وهبه ثم استرجعـه ، يستطيع ان يهب غيره وغيره .

وشاع الاطمئنان في نفس امين ؛ وانتهى المؤذن من تكبيره ؛ فقام للصلاة بنفس يشيع في جوانبها نور الايمـان والثقة بالله .

ودخل على زوجته وكان يغالب الدمع ، ووقف قرب السرير ؛ ومن خلال دموعه المنهمرة على وجهه ، استطاع ان يتبين ملامح زوجته وقد علاها الذبول والاصفرار ، واخذ في تعزيتها وتسليتها وتهنئتها ؛ وكان يتكلم بطلاقة عجيبـة كأن انسانا غيره يتكلم من فمه ، لقد كان ايمانه هو الذي يتحدث ، وكان صوت المؤذن هو الذي يملأ الفضاء .

وشاع الفرح في وجه الزوجة ، لقد كانت تخشى غضبه وتأنيبه ، ولكن الواقع كذب اوهامها ؛ وازال مخاوفها ، وانحنى الزوج عليها يقبل جبهتها ، وسقطت من عينيه على وجهها دموع هي مزيج من الالم والفرح ؛ وامتزجت بدموع مثلها ؟

البصرة محمد حسين اسماعيل

قيس يجن • •

الشاعر آصف العطار

اواه من « طائري » ياربي اواه   اذكى فؤادي نارا في حناياه
يامن اذا استيقضت عيني اهيم به   واجتدي في رؤى الاحلام رؤياه
روحي فداك اجلها قبلة لفتى   جهنم قلبه والمصطلي فاه
يادمية فوق محراب وراهبـا   في الدير مضطرم الانات أواه
يابسمة الامل الرفاف في خلدي   ونشر روض تفوح اليوم رياه
ياويلتا من سنا حبي وما فعلت   في القلب جائرة (الله) عيناه
وظل يخطو اليف البشر مبتسما .   ولألأت كجمان لي ثناياه
وزج في كل قلب جسرة وجوى   وناط في عقلي الهيمان مغناه
وقال في خيلاء انني قمر   في القلب من صدري الحران معناه
ماذا اراه اتمثالا لساحرة   ام سحر هاروت في العينين ناجاه
ام ربة السحر (فينوسا) واين لها   بحسنها الجم تجري مثل مجراه
اني على رغـم عذالي اجن به   وملء قلبي وملء الروح اهواه
يا ايها الناس في الفيحاء هاانذا   قيس يجن وفي الزوراء ليلاه

البصرة آصف العطار